لامية جميل

مرت الإشارة إلى هذه القصيدة في المحاضرة الثالثة، ولكنا رأينا أن نثبتها هنا بجانب رائية عمر، ليرى القارئ إلى أي حد صدق من قال: إن عمر أشعر من جميل في الرائية، وإن جميلًا أشعر منه في اللامية. وقد بحثنا عن نسخة كاملة لهذه القصيدة، فلم نجد غير ما أثبته صاحب الأغاني في ترجمة جميل، ثم حاولنا الموازنة بين القصيدتين، فلم نجد ما يبرر وضعهما في الميزان؛ إذ كانت رائية عمر أجل بلا مراء. وجاء في الأغاني في أخبار الغريض: قال الزبير فيما أخبرني به الحرمي ابن أبي العلاء عنه: من الناس من يفضل قصيدة جميل اللامية على قصيدة عمر. وأنا لا أقول هذا؛ لأن قصيدة جميل مختلفة غير مؤتلفة، فيها طوالع النجد، وخوالد المهد، وقصيدة عمر بن أبي ربيعة ملساء المتون مستوية الأبيات، آخذ بعضها بأذناب بعض، ولو أن جميلًا خاطب في قصيدته مخاطبة عمر لأرتج عليه، وعثر كلامه به -قال جميل:

لقد فرح الواشون أن صرمت حبلي ... بثينة أو أبدت لنا جانب البخل
يقولون مهلًا يا جميلُ وإنني ... لأقسمُ مالي عن بُثينة من مهل
أَحِلمًا فقبل اليوم كان أوانه ... أم أخشى فقبلَ اليوم أُوعدت بالقتل
لقد أنكحوا جهلًا «نبيهًا» ظعينةً ... لطيفةَ طيٍّ الكشح ذات شوًى خَدل[1]
وكم قد رأينا ساعيًا بنميمةٍ ... لآخر لم يعمد بكف ولا رجل

***

ألا أيها البيت الذي حِيل دونه ... بنا أنت من بيت وأهلك من أهل

(١) نبيه: اسم علم، وهو نبيه بن الأسود العذري -الكشح: الخصر، الشوى: الأطراف.

ثلاثـــة أبيـــات فبيـــتٌ أحبـــه ... وبيتـــان ليـــسا مـــن هـــوايَ ولا شـــكلي
إذا مـــا تراجعنـــا الـــذي كـــان بيننـــا ... جـــرى الـــدمع مـــن عَيْنَـــيْ بثينـــة بالكحـــل
كلانـــا بكـــى أو كـــاد يبكـــي صـــبابة ... إلى إلفـــه واســـتعجلت عـــبرةٌ قـــبلي
أبيـــت مـــع الهُـــلاك ضـــيفًا لأهلهـــا ... وأهـــلي قريـــب موســـعون ذوو فـــضل[1]
فلـــو تركـــت عقـــلي معـــي مـــا طلبتهـــا ... ولكـــن طِلابيهـــا لمـــا فـــات مـــن عقـــلي
فيـــا ويـــح نفسي حسب نفسي الـــذي بهـــا ... ويـــا ويـــح أهـــلي مـــا أُصـــيب بـــه أهـــلي
وقالـــت لأتـــراب لهـــا لا زعـــانف ... قـــصار ولا كُـــسٌّ الثنايـــا ولا ثُعـــل[2]
إذا حميـــت شـــمس النهـــار اتقينهـــا ... بأكـــسية الـــديباج والخـــز ذي الخمـــل[3]
تـــداعين فاســـتعجمن مـــشيًا بـــذي الغـــضا ... دبيب القَطَـا الكُـدْريِّ في الـدمث السـهل[4]
إذا ارتعْـــنَ أو فُـــزِّعن أو قمـــن حولهـــا ... قيـــام بنـــات المـــاء في جانـــب الـــضحل[5]
أجـــدِّي لا ألقـــى بثينـــة مـــرةً ... مـــن الـــدهر إلا خائفًـــا أو عـــلى رحـــل
خلـــيليَّ فـــيما عـــشتما هـــل رأيـــتما ... قتـــيلًا بكـــى مـــن حـــب قاتلـــه قـــبلي؟

على أن من الحق أن نكرر ما أشرنا إليه فيما سلف من أن عمر أقل صدقًا في الصبابة من جميل، فإن لم تشهد هذه اللامية على سبقه، فله قصائد ومقطوعات تجعله في الطراز الأول بين أصحاب العواطف والقلوب. أليس هو الذي يقول:

---

(١) الهلاك: الصعاليك الذين ينتابون الناس ابتغاء معروفهم.

(٢) الزعانف جمع زعنفة -بالكسر والفتح- وهي القصيرة -كس: جمع كساء وأكس من الكسس - بالتحريك- وهو قصر الأسنان -ثعل جمع ثعلاء وأثعل من الثعل بالتحريك، وهو زيادة سن أو دخول سن تحت سن مع اختلاف المنابت.

(٣) الخمل: الهدب.

(٤) الكدري، كما في القاموس، ضرب من القطا غير الألوان رقش الظهور صفر الحلوق.

(٥) الضحل: الماء القليل على الأرض لا عمق له، ويجمع على أضحال وضحول وضحال.

لما دنا البين بينُ الحي واقتسموا ... حبل النوى فهو في أيديهمُ قِطَعُ
جادت بأدمعها ليلَى وأعجلني ... وَشْك الفراق فما أُبقي وما أدع
يا قلب ويحك ما عيشي بذي سَلَم ... ولا الزمان الذي قد مرَّ مُرتجع
أكلما بأن حيٌّ لا تلائمهم ... ولا يبالون أن يشتاق من فجعوا
علَّقتي بهوى مُردٍ فقد جعلت ... من الفراق حصاة القلب تنصدع

بلى! وهو الذي يقول:

وما زلتم يا بثن حتى لو أنني ... من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا
إذا خدرت رجلي وقيل شفاؤها ... دعاء حبيب كنت أنتِ دعائيا
وما زادني النأى المفرق بعدكم ... سلوا ولا طول التلاقي تقاليا
ولا زادني الواشون إلا صبابةً ... ولا كثرة الناهين إلا تماديا
لقد خِفت أن يغتالني الموت عنوةً ... وفي النفس حاجات إليك كما هيا
وإني لتثنيني الحفيظة كلما ... لقيتك يومًا أن أبثك ما بيا
ألم تعلمي يا عذبة الريق أنني ... أظلُّ إذا لم أُسق ريقك صاديا